

سيرة ابن إسحاق

لعله من العجيب حقا أن ننظر الى كتاب ابن هشام الذي يرويهِ عن ابن اسحق فظرتنا الى كتاب تاريخ حقيقى يؤرخ لحياة الرسول تأريخا يراد منه وجه العلم والحقيقة وحدها .. فثمة اشياء تقف دون هذه النظرة وتجعلنا نحتاط قليلا ونحن نحاول أن نضع هذا الكتاب فى مكانه بين الكتب ..

أول هذه الاشياء أن ابن اسحق المتوفى نحو عام ١٥٢ هـ كان جامعا محبوبا لكل ما رواد من سبقه من الناقلين المحدثين أمثال عروة بن الزبير ووهب بن منبه وابن شهاب الزهرى وشرحبيل بن سعد وعاصم بن قتادة وغيرهم .. ولهؤلاء جميعا أعمال متفرقة فى السيرة ، ومنهم من تناول فترة بذاتها ، ومنهم من اهتم بالهجرة الى الحبشة ، ومنهم من اقتصر على حكاية المغازى ، ومنهم من حكى عن رسول الله (ص) .. وجاء ابن اسحق ليؤلف من هذا كله عملا موحدًا ، يجمعه مما تناقله هؤلاء الرواة ، ويؤبه حسب أحداث التاريخ وحسب المكان والزمان ..

ورغم أن كتاب ابن اسحق نفسه ليس تحت أيدينا الا أن رواية ابن هشام لكتابه تبين منهج ابن اسحق وتوضح طبيعة عمله . والواقع أن ابن هشام يحاول أن يتدخل فى كثير من

المواقف لينقد ويعارض ويشرح ويضيف ، فاذا ما اغفل شيئا
تصدى السهيلي في الروض الأنف لبيان خطأ تاريخي أو تصحيح
رواية تتعارض مع أحداث الرسالة أو طبيعتها .. فعندما يتحدث
ابن اسحق عن فرض الصلاة نرى السهيلي يقول معقبا وناقدا
« وهذا الحديث لم يكن ينبغي أن يذكره في هذا الموضع ، لأن
أهل الصحيح متفقون على أن هذه القصة كانت في الغد من
ليلة الاسراء . وذلك بعد ما نبيء بخمسة أعوام . وقد قيل :
ان الاسراء كان قبل الهجرة بعام ونصف ، وقيل بعام ، فذكره ابن
اسحاق في بدء نزول الوحي ، وأول أحوال الصلاة » ..

وتتكرر هذه الظاهرة كثيرا في مواضع مختلفة من رواية
ابن اسحق . ومعنى هذا أنه حصل على كمية كبيرة من الأخبار
والقصص وحاول أن يرتبها ويوبها فنجح في هذا في غالب
الأحيان ، وجانبه التوفيق في بعضها فكشف هذا عن طبيعة عمله
الذي يقوم على التجميع لا على النقد والتحصيص ومقابلة الرواية
بأخرى ومحاولة التحقيق تاريخي ..

ونرى ابن هشام يتدخل كثيرا ليكمل حادثة أشار إليها
ابن اسحق إشارة وتركها دون افاضة ، كما فعل في قصة
داحس والغبراء وحروب الأوس والخزرج وغيرها .. وهذا
ربما كان يعنى أن ابن اسحق لم يأخذ من الروايات إلا ما يقيم
هيكل كتابه ، وما زاد عن هذا الهيكل تركه حتى وإن كان في

ذكره ما يلتقى الضوء على الأحداث نفسها ، وهذا — كما قلنا —
ما حاول ابن هشام أن يتلافاه ويكمّله ..

فابن اسحق اذن ليس مؤرخا بالمعنى العلمى لهذه الكلمة،
وانما هو جامع ومبوب .. كانت السيرة قبله أجزاء متفرقة ،
يروى كل من تناولها ناحية ، فجاء هو ليجمع هذه النواحي كلها
فى نهج متسلسل تاريخيا ..

والرواة الذين سبقوا ابن اسحق ومنهم القصاصون
وجامعو الأساطير لم يقصدوا — كما بينا من قبل — التاريخ
لذاته ، وانما كان عملهم — الى حد كبير — محاولة لاشباع نهم
العرب الى القصص ، وهم قد اختاروا شخصية محمد (ص) بطلا
لقصصهم استعاضة به عن أبطال الجاهلية الذين يقصون عنهم
لأنهم وجدوا فى شخصيته وفاء بلامح البطل العربى وبسماته ،
كما كانوا يحاولون أيضا اشباع نهم المسلمين الى الحديث عن
رسولهم فى وقت منع فيه الخلفاء الصحابة من تدوين الحديث
وجمعه اكتفاء بالقرآن الكريم .. ويكفى أن يكون فى طليعة
هؤلاء الرواة واحد كوهب بن منبه اكبر جامع لأساطير اليمن
لنرى فى هذا الدليل على ارتباط السيرة فى أذهان هؤلاء الرواة
بالقصص ..

وحين جاء ابن اسحق فجمع كل هذا مؤلفا بينه ، ومكونا
منه أول كتاب متكامل فى السيرة ، تعرض للاتهام والحملة عليه،

فنجده عالما جليلا كالامام مالك بن انس ، وآخر كهشام بن عروة
ابن الزبير يكاد أن يخرجانه من حظيرة المحدثين أهل الصدق
والثقة ، ولا يدخران وسعا في اتهامه بالكذب والدجل الى جانب
اتهامات أخرى كالنقل عن غير الثقات وصنع الشعر ووضعها في
كتابه وأخطاء في الانساب وغيرها ..

ونحن نرى أسبابا كثيرة للأمثال هذه التيم فيما يرويه ابن
اسحق من قصص تخرج عن حد المعقول ، وتتعارض وطبيعة
محمد البشرية وحقيقة رسالته كل التعارض .. فالصورة التي
نخرج بها عن محمد من كتاب ابن اسحق أقرب الى الصورة
الأسطورية منها الى الصورة التاريخية .. فهو يدعو ربه فينزل
المطر ، وحين يجلس تظله شجرة الأنبياء ، وحين يسير تمنع
عنه الشمس غمامة ، الى آخر ما في الكتاب من معجزات ..

وعذر ابن اسحق كما قلنا أنه يجمع روايات شتى يرويها
أكثر من راو ، وفيهم من يتعشق الأساطير ، وفيهم من يكتب
الأساطير . ويحاول الخطيب في كتابه « تاريخ بغداد » وابن سيد
الناس في كتابه « عيون الأثر » أن يدافعا عن ابن اسحق دفاعا
حارا ، ولكن دفاعهم لا يستطيع أن يمحو هذه الحقائق الموجودة
في كتابه .. الا أن كلمة الفصل تأتي على لسان أحد المدافعين
عنه اذ يقول ابن عدى : « ولو لم يكن لابن اسحق من الفضل
الا أنه صرف الملوك عن الاشتغال بكتب لا يحصل منها شيء
للاشتغال بمغازي رسول الله (ص) ومبعثه ومبتدأ الخلق ،

لكانت هذه فضيلة سبق بها ابن اسحق .. فكنابه بهذا الاعتراف كتاب يصرف الناس عن ذكر ملوك الجاهلية وابطال اساطيرها الى ذكر رسول الله وغزواته .. ومعنى هذا ان ابن اسحق انما كان يجمع قصصا عن الرسول ويرتبها ويؤوبها ويقدمها لنا متكاملة لتقف امام سير ملوك العرب وابطالهم وتتفوق على كل هذه السير بما لمحمد من لصوق بقلوب العرب والمسلمين ، وبما لأحداث حياته من أهمية في عالم المسلمين يبرزها الدين والعصبية والهدف المشترك .. ولعلنا بعد هذا نرتاح الى ان كتاب ابن اسحق لم يقصد منه الى التاريخ ، وانما قصد منه الى جمع القصص كما هي طالما استطاعت ان تؤدي دورا في الكشف عن جوانب البطولة في حياة الرسول ، وابرار ملامح الكفاح في كل مراحل حياته ..



ثاني الأشياء التي تواجهنا ونحن نبحث مكان كتاب ابن اسحق بين الكتب هي طريقة تأليفه للكتاب .. وابن اسحق يبدأ كتابه بالتنويه بأنه يعرض فيه لسيرة رسول الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .. فيبدأ بذكر نسب الرسول حتى آدم .. ويحدد موضوعه بأنه ما يتعلق بحياة الرسول ونسبه ، ويلقى على أحداث سيرته من الأضواء ما يجلى رسالته ويظهر أهميته دعوته وتطورها . ويأتي ابن هشام فيأخذ مما جاء به ابن اسحق حسب منهج خاص وضحناه ، ويبين منه ان الامر تتبع لاهم

الشخصيات التى جاءت فى نسب الرسول . وهو تتبع لا يخضع للتاريخ بقدر ما يخضع للأهمية الأسطورية . فاننا لنراه يقفز قفزا من تتبع نسب الرسول ومحاولة معرفة مكانته بين العرب، الى أحداث تقع فى اليمن فتؤذن بموت ملكهم ربيعة بن نصر ودخول الحبشة الى اليمن ، ثم عودة الملك على يد سيف بن ذى يزن ، ثم انقطاعه بظهور رسول الله فى مكة .. والأحداث كما ترى أسطورية الدلالة ، أسطورية التأليف ، وهى تتعلق بملوك اليمن الذين تعلم مما ذكرنا عنهم من قبل أنهم كانوا المسادة الأسطورية الأولى عند رواة الأساطير العربية .. ثم تستمر الحكايات عن دخول اليهودية الى اليمن ، فدخول النصرانية ، فيوم الفيل ، وتقف عند عبد المطلب قليلا . ثم تستأنف القصة سيرها حول أمة الفرس باليمن ، فبدء ظهور الأصنام وعبادتها ، ثم عود الى النسب فيقف وقفه طويلة عند عبد المطلب بن هاشم ويجره هذا الى الحديث عن زمزم .. وهنا تبدأ سلسلة أخرى من الأساطير حول البيت ومن تداولوا على السكنى حوله من جرهم الى كنانة وخزاعة الى قريش .. ومن زمزم أيضا يتطرق الى حياة عبد المطلب وأولاده الى أن يصل الى الرسول صلى الله عليه وسلم .. وهذا الحديث كله رغم أنه يحاول أن يلبس سمة العلم بما يورد من أنساب الا أنه لا يخرج فى شئ عن منهج سبق أن رأيناه عند وهب بن منبه فى كتابه التيجان ، وعند عبيد ابن شريفة فى كتاب أخبار ملوك اليمن .. فالسيرة رواية أحداث والأحداث تعتمد على أفراد بذاتهم وحولهم تدور الأساطير .

تسلم كل أسطورة الى التى تليها .. فاذا ما انتقلنا الى باقى الكتاب رأيناه يتبع نفس الطريقة فهو ينتقل من حدث الى حدث ، ولكل حدث بطل يدور حوله الحديث ويسلم الى الذى يليه فى القصة التالية وهكذا ..

الفرق الوحيد أن وهبا كان يجمع الروايات حول ملوك اليمن بعامة وكأنما يريد أن يصور حضارة اليمن ومجدها عن طريق سرد أساطيرها . وعبيد كان يحكى من أساطير اليمن ما يعطى معنى اسلاميا وما له علاقة بالقصص القرآنى ، أما ابن اسحق فهو يجمع الروايات التى لها علاقة بمحمد كائنسان وبمحمد كنبى . واهتمامه بمحمد الانسان جعله يجمع ما له علاقة بنسبه وبيئته وجدوده .. أما عنايته بمحمد النبى فجعلته يعنى بجمع ما له علاقة بالأديان فى الجزيرة من ديانة الحنيفية الى اليهودية ثم المسيحية مع ذكر تاريخ عبادة الأصنام .. وكأنما يحاول أن يرسم صورة للجزيرة قبل محمد .. فاذا ما بدأ فى الحديث عن محمد نفسه فهو بطل أسطورى قد امتزج بشخصية النبى ، تنسب اليه المعجزات والخوارق ، وترسم صورة كفاحه الجاد فى سبيل رسالته معا وفى وقت واحد . وهذا التضارب فى رسم الشخصيات نجده عادة فى أساطير العرب جميعا ، فأنت سرعان ما تحس باختلاط واضح بين شخصية الملك التاريخية وبين صورته الأسطورية التى يوردها القصاصون فى مزيج بين مايعرفه التاريخ وبين ما يخلقه الخيال ..

والتشابه بين كتاب ابن اسحق وبين غيره من كتب القصص العربية لا يقف عند هذا الحد بل هو يمتد الى طريقة سرد القصة نفسها . فهو بعد ان يلم بأحداث قصة يخرج منها الى ما قيل فيها من شعر . . واحساس الناقلين القدامى بزيف هذا الشعر راجع الى اعتبارهم الكتاب تاريخا بينما هو في واقع الامر لا يعدو ما كان متبعا في كتب القصص والاساطير بعامة من انهاء كل قصة بسرد الشعر الذي قيل فيها من اقوال شعراء معروفين ، فان لم يوجد فهو شعر ينسب الى أحد أبطال الحادثة نفسها ، أو البطل الاصلى للحادثة . . وفي حادثة واحدة وهي موت عبد المطلب ابن هاشم يذكر ١١ بيتا لصفية ابنته و ٧ أبيات لبرة ابنته و ٨ أبيات لعاتكة ابنته و ٩ أبيات لام حكيم البيضاء ابنته و ٧ أبيات لأمية ابنته و ١٠ أبيات لأروى ابنته و ٤١ بيتا لأبي لهب عبد العزى ابنه بينما يذكر لمطروود بن كعب في نفس الحادثة ٧ أبيات . . وليس معقولا أن كل أولاد عبد المطلب نساء ورجالا يقولون الشعر . . كما أن الشعر الذي أورده ابن اسحق ليست له قيمة فنية توجب اثباته ، انما الأمر فيما نرى تقليد يتبعه ابن اسحق نقلا عن كتب الاساطير والحكايات ، وهو لا يقتصر في استعماله على ما له علاقة بتاريخ العرب الاسطوري القديم وحسب ، وانما يتجاوزه الى ما يورد من قصص تتعلق بشخص النبي وأحداث حياته وكفاحه . .

الاختلاط ان بين الصورة التاريخية والصورة الاسطورية،

والسير فى تأليف القصة على النهج المعروف عن أصحاب
الأساطير العربية يكون منهجا للكتاب يثبت علاقته الشديدة
بالمثل التى احتذاها ابن اسحق وهى ما سبق من كتب ككتاب
وهب وكتاب عبيد ..

ومعنى هذا أنه فهم سيرة محمد (ص) كما فهم وهب سيرة
الحارث الجرمى مثلا أو كما فهم عبيد سيرة تبع الأوسط مثلا
من حيث البناء والتركيب ، ومن حيث منهج الرواية والتأليف ..
وهذا يؤكد أن كتاب ابن اسحق أقرب الى العمل القصصى منه
الى العمل التاريخى العلمى القائم على البحث والمقارنة ..

ثالث الأشياء التى تحدد مكان كتاب ابن اسحق ، موقفه
مما يجمع من الأحداث وطريقة ربطه بينهما .. فهو كما قلنا
يحكى دخول اليهودية بلاد العرب ، ثم دخول المسيحية ، ثم
نشأة عبادة الأوثان ، ثم قلق أهل الجزيرة من قريش من كل
هذه الأديان ومحاولتهم البحث عن دين الحنيفية .. وكل ما يرويه
حول هذه الأديان يغلب عليه الطابع الأسطورى ، وان كان
يجمعه خيط واحد هو التمهيد لظهور الدين الجديد .. فإذا ما
أوشك أن يتحدث عن الدين الجديد فهو يورد مزيجا أسطوريا
جديدا يعلن دور هذه الأديان كلها فى التنبؤ بمحمد واعداد الناس
لاستقبال رسالته ودينه ..

فاليهود تنبأوا بمحمد منذ تبع الأوسط حين قال له حبران
من اليهود أن يكف عن المدينة فلا يهدمها لأنها مهاجر نبي يظهر
في مكة ، ومنذ قصة بحيرى اليهودى التى امتلأت بأحداث
أسطورية واضحة كالظل والغمامة والشجر التى تسخر للصبي
الصغير محمد أثناء رحلته مع عمه أبى طالب . ودور اليهود في
التنبؤ كبير ومتعدد ..

أما المسيحية فهناك قصة لا تقل في تأليفها وسياتها وما
فيها من أحداث أسطورية عن قصة بحيرى ، تلك هى قصة
نسطور في رحلة محمد مع ميسرة في مال خديجة ، وهى تضم
أحداثا تؤكد نبوءة نسطور برسالة محمد كالشجرة التى وجدت
خصيصا لتظل محمد ، وكالمكين يظلانه اذا سار .. وهناك
دور ورقة ابن نوفل الذى يكثر حوله الشعر وتكثر الحكايات .
وتأتى قصة سلمان وكيف سأل رجال الدين النصارى ، بل وكيف
التقى بالمسيح نفسه مما يضيف على أحداث قصته جوا خياليا
أسطوريا يقود كله الى تنبؤ النصارى بمحمد ورسالته ..

أما الوثنية فتنثر الحكايات عند ابن اسحق حول كهان
العرب وما كانوا يتلقون من علم بالغيب عن طريق الشياطين.
ثم ما سبق ظهور محمد من رجم للشياطين بالنجوم مما جعل
أكثر الكهنة يؤكدون ظهور نبي .. بل ان سطيحا وشقا الراهبين
يتنبآن بمحمد منذ ربيعة بن نصر ملك اليمن ، ويخبرانه بزوال

ملك اليمن على يد الأحباش، ثم عودته على يد سيف بن ذى يزن،
ثم انقطاعه بظهور النبی محمد (ص) من شمال الجزيرة ..

والمسألة بهذه الصورة تكاد تكون تنافسا بين أديان الجزيرة
في الادلال بالفضل في معرفة الرسول والتنبؤ به وتنبيه الأذهان
الى رسالته ..

وتقبل ابن اسحق لكل هذه الروايات — وواضح ان كل
واحدة منها لها مصدر بذاته — انها يعنى حياده الكامل تجاه كل
هذه الأديان .. فهو أولا لم يحاول أن يناقش أى رواية من هذه
الروايات وان كانت واضحة الوضع مليئة بالأساطير والأحداث
التي يغلب عليها الخيال .. وهو ثانيا يجمع كل القصص التي
تمهد لظهور محمد سواء كان مصدرها يهوديا أم نصرانيا أم
وثنيا .. وسواء أدل بموقف اليهود أم بموقف النصارى أم
بموقف الوثنيين .. والذي يهمه منها كلها انها ارهاصات بمحمد
ورسالته بصرف النظر عن مصدرها أو دلالتها أو أهميتها ..
وهو ثالثا يقبل المتناقضات التي في كل هذه الروايات التي تحاول
كل منها أن تحط من الأديان الأخرى وترفع من قدر دينها هي ..
فالروايات اليهودية تعلن أن اليهود يعرفون محمدا اذ هو مذكور
في كتبهم بصفاته وعلاماته ، واليهود مؤمنون يصلون الخمس أو
هكذا يروى ابن اسحق في صفحة ٢٢٧ من جزئه الأول ..
والمسيحيون يتناقل قسسم النذر بظهور محمد كعلامة لخلاص
البشرية وظهور الدين الصحيح ، بينما يظهر عيسى بنفسه ليخبر

سلمان بهذه النبوءة أو هكذا يذكر ابن اسحق في صفحة ٢٣٦ من الجزء الأول .. أما أصحاب الوثنية فهم يكفرون الديانتين ، فعندهم أن اليهود يعبدون عزرا وأن النصارى يعبدون عيسى ، بينما هم — أى الوثنيون — يعبدون الملائكة ..

وهذا التناقض تشهده في أكثر من موضع بعد هذا وقبله ، فالروايات تارة تحط من قدر دين منها وتارة ترفع من شأنه ، وابن اسحق يجمع هذا كله بدون تفرقة ..

وهذا كله يعنى أن ابن اسحق لم يكن له موقف علمى واضح ، بمعنى أنه لم يحدد لنفسه حدودا يقبل فيها الرواية أولا يقبلها .. كما لم يجعل لتقبله للمتناقضات حدا . بل لم يحاول أن يناقش أيا من الروايات التى ينقل .

انما ابن اسحق صاحب موقف آخر ، هو الموقف الوجدانى .. فالذى لا شك فيه أن ابن اسحق كان مؤمنا بمحمد مأخوذا بشخصيته ، والذى لا شك فيه أيضا أن حسه الفنى كان مرهفا يتذوق القصة ويستطيب ما بها من مواضع أملاها الخيال وتولدت من الحب أو من دعواه ، ومن الاخلاص أو محاولة الظهور بثوبه . فقبل ابن اسحق كل ما يرضى وجدانه مما يكسب سيرة محمد الجو الفنى الذى يحب ، والذى يجعل منها ما هو أروع من كل سيرة قبلها .. ولعل هذا هو السر فى أنه لم يرفض أى رواية ، ولعل هذا هو السر فى أنه لم يقف لحظة شاكا أمام الحكايات

الغريبة التى تروى عن معجزات محمد والتى تخرج محمدا عن طبيعة رسالته وحقيقة دوره .

على هذا الضوء يمكننا أن نفهم عمل ابن اسحق فلا نطلّمه كما فعل الامام مالك بن أنس الذى لم يرضه عمله اذ نظر اليه نظرة العالم الباحث عن الحقيقة التاريخية والعلمية .. وانما نضع عمله فى المكان اللائق به ، أعنى فى قمة الأعمال القصصية الاسلامية .. والمثل المتكامل الذى يقدم الصورة الثالثة من صور عصر التجميع فى الرواية العربية .. بل نستطيع أن نقول أيضا انه يمثل وحده مرحلة الانتقال بين الرواية العربية قبل الاسلام بمثلها وأبطالها ، والرواية العربية الاسلامية التى تطورت ونمت ووصلت الى قمته فيما بعد .. والفضل فى هذا كله يرجع الى حس ابن اسحق المرفه الذى استطاع أن يستخرج من كل الروايات حول محمد هذه السيرة المنظمة المنسقة التى تحوى تاريخا قصصيا جميلا لحياة محمد صلى الله عليه وسلم .. وان كان نصيبها من التاريخ والحقيقة العلمية لا شأن لنا به .

* * *